رمضان: الولادة من جديد

طرابلس: «البيئة الحاضنة» لرمضان

لامع ميقاتي

لرمضان في نفوس المسلمين، وحتى غير الصائمين منهم، مكانة خاصة، ولهذا السبب تركزت وثبتت فيه بقية ما صمد من تقاليد حضارتنا، التي ربما اليوم تندثر شيئاً فشيئاً أمام الغزو الثقافي بسبب محاكاتنا ما نشاهده من مسلسلات متلفزة، حتى لو كانت عربية..

وهل نجاح بعض المسلسلات السورية، مثل باب الحارة، الا تعبيراً عن هذا الحنين الى هذه التقاليد المندثرة، التي هي بالنسبة الى الاسلام مثل الاسفنج بالماء! وكأن شهر رمضان، بعاداته وتقاليده الشعبية أهم ما تجلت به تلك الازمنة؟

ولهذا السبب بقي حتى اليوم شهر رمضان، في معاشه أحد المؤشرات القليلة الباقية عن الروح الشعبية الموروثة عن أسلافنا. وأنا أستعمل تعبير الروح الشعبية، ولا أتكلم عن الفقه، او اذا شئت عن الاسلام الرسمي.

وقد تكون بعض هذه العادات مكروهة في الفقه، ولكنها موجودة في الشعب بين الناس، ومن السخف انكار وجودها او اهميتها، لأنها تمثل المقاربة الشعبية العفوية للناس لدينهم، لذا هي أصدق دليل عن مشاعرهم.

الصوم موجود في كل الديانات والرياضات الروحية، فمثلاً هناك فقراء ودراويش الهند او بلاد آسيا الذين يصومون منقطعين عن الطعام والشراب والحياة العامة لمدة طويلة.. وهناك من يذل نفسه بأن يصبح متسولاً يطوف جائعاً باحثاً عن طعامه، والامثلة كثيرة.

كما انه، في معظم الديانات الاخرى، الصوم «إماتة» للجسد، باعتبار الجوع بحد ذاته عذاباً لهذا «الجسد اللعين».

لذا فإن العذاب والجوع وغيرهما لهما قيمة عالية وسامية دينياً، على انهما ارتقاء وتسام، تماماً مثل التقشف والطاعة والعفّة في الرهبنة، فهي قيم سامية في منظور أصحابها، لأنها عبادة، حتى وان كانت دائمة، فالمتعبد يقدّم عذابه الى الله عزّ وجل، لذلك منهم من يتنسك وينقطع عن العالم.

هذا الامر مختلف عن مفهوم الاسلام للصوم، والعبادة، وربما وُجد في حضارتنا عند أهل التصوف فقط، الذين تأثروا بحضارات اخرى.

اما الصوم عندنا، فهو الانقطاع عن الطعام وغيره ضمن ساعات محدودة ومحددة، بطريقة واضحة، لكي نعيش صائمين متعبدين، ولكي نشعر مع الفقراء، ونقوم بأعمال الخير.

لكن صوم المسلمين ليس إماتة للجسد، لأن الجسد عندنا خلقه الله، وأمرنا بتكريمه وحرّم تشويهه، وحثّنا على الامتناع عن كل ما يضرّ جسدياً، ولقد عظم الله شهر رمضان جاعلاً مردود التعبد والبركة فيه عالياً، لذا نحن نكثر فيه التعبّد وأعمال الخير، من ايتاء ذي القربى والمساكين ومحبة الناس والتسامح.

لذا يسيطر على هذا الشهر الفضيل جو ولا أجمل ولا أطيب من الفرح والبهجة.

رمضان ليس شهر حزن وآلام، بل شهر فرح وسعادة، وكيف لا يكون كذلك، وهو الشهر الذي أُنزل فيه القرآن الكريم على المصطفى حبيب الامة (صلى الله عليه وسلم)، وهو في نظرنا، نحن المسلمين، أهم حدث منذ ان خلق الله العالم.. أنزل الله كتابه على نبينا، لكي نهتدي الى ما فيه خيرنا، فكيف لا نفرح ولا تغمرنا السعادة.. وكيف لا نحتفل؟

هذه من أهم ميزات الحضارة الاسلامية، حتى ان بعض المستشرقين قال ان الاسلام هو «دين التمتع» (Hédoniste Religion).

بالطبع، الاسلام يعظّم الجهاد والعذاب والشظف وحتى الموت في سبيل العقيدة وعند اللزوم ولكنه بطبيعته، يرفض تعظيم قيمة هذه الآلام فقط لأنها آلام بحد ذاتها، او لأن الحياة هي عذاب «وادي آلام» ولأن كلما زاد الشقاء اقترب الانسان من ربه بالضرورة!!

على المسلم ان يعيش ضمن شرع الله وحدوده، لكي ينعم بالدنيا والآخرة، ونقول ينعم لأن للمؤمن الدنيا طيبة وفيها سعادة والاخرة نعيم: يبارك الله للمؤمن في رزقه في هذه الدنيا، فيشكره المؤمن بالطاعة والعبادة، وأما الجزاء في الآخرة، فيصفه لنا القرآن الكريم على انه عيش رغيد وملذات مشروعة حقيقية لا تفنى... فيها ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولاخطر على قلب بشر.

لا شك من ان الكثير من التقاليد الرمضانية قد تأثّر تأثراً كبيراً بدخول التلفاز الى المنازل والتغيير في أنواع المأكولات، فمثلاً لم يكن أحد يعرف معظم مأكولات ومشروبات اليوم، ولم تظهر الغازيات، مثل الكولا وغيرها الا بعد منتصف القرن الماضي، اما «الهامبرغر» و«البيتزا» ومحلات المعجنات، فلم تعرف الا بعد السبعينيات.

في الخمسينات

واذا اردنا ان نتصوّر بيئة رمضانية تقليدية، فان مدينة طرابلس في الخمسينات أصدق مثال على ذلك لسببين، الاول ان الكثير ممن عاش هذه المرحلة ما زال يذكرها لنا، والثاني ان طرابلس في عام ١٩٥٠ مدينة محافظة جداً تعداد سكانها أقل من مئة وخمسين الفاً، وبعيدة كل البعد عن صخب بيروت.

كان امتداد المدينة لا يتعدى التل، والمسافة بين الميناء والبلد كانت لمّا تزل بمعظمها بساتين.

في هذه البيئة المغلقة المحافظة، كان لرمضان أهمية كبيرة جداً، فتزدان المدينة بالمصابيح في الشوارع، خاصة الحارات الضيقة، ويكثر باعة الحلويات المحلية غير المشهورة، مثل النمورة والفطيرة بالجوز والقشطة عند صغار الباعة (الحلونجية)، كما القطائف التي كانت بقشطة او بجبنة او حتى محشوّة بالجوز. اما باعة الحلويات الكبار، فكانوا على التل. وهم فقط عائلات الحلاب (الحاج رفعت) والعرجة، وكان التنافس شديداً بينهما.

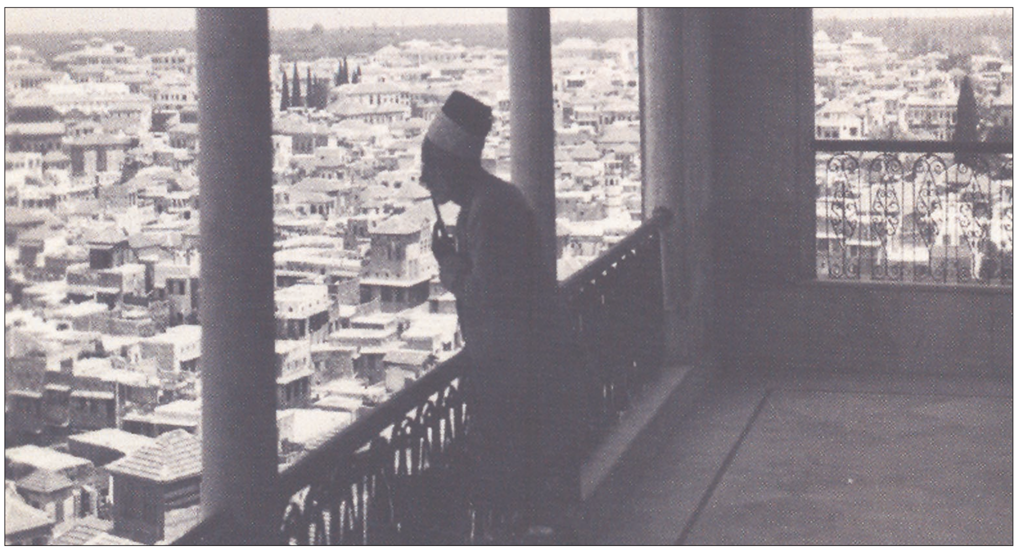

عالم دين يطل من شرفته على مدينة طرابلس، في اواسط القرن الماضي

بعض الاحاديث للرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم):

■ «أما ولله اني لأخشاكم لله واتقاكم له ولكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس منيٍّ» (صحيح رواه مسلم عن أنس).

■ «حبّبَ الي من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عيني بالصلاة» (صحيح عن أنس رواه مسلم بالمسند والنسائي بالسنن والحاكم في المستدرك والبيهقي في السنن).

■ «كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشرة امثالها الى سبع مئة ضعف الى ما شاء الله، قال الله عز وجل (حديث قدسي) الا الصوم فانه لي وأنا أجزي به – يدع شهوته وطعامه من أجلي، للصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه.. لخلوف (رائحة) فمه أطيب عند الله من ريح المسك» (صحيح عن ابي هريرة رواه احمد بالمسند ومسلم بالصحيح والنسائي بالسنن وابن ماجة بالسنن).

اما المشروبات، فكانت في رمضان الجلاب الفاخر والتمر هندي والسوس والخرنوب، وكلها تباع في محلات صغيرة انقرض معظمها مع الزمن أمام الكولا وغيرها.

قبل بداية رمضان كان الناس ينتظرون ولادة الهلال، ولا أحد يعلم متى (مثل اليوم!). وكان الاثبات يتم باطلاق المدفع من قلعة طرابلس التي كانت مشرفة على المدينة وتُرى من معظم الاماكن.. وكانت الناس تنتظر فاذا اتى الاثبات «ضرب المدفع».

ولو بعد منتصف الليل، فيقوم الجيران يهنئون بعضهم بعضاً، اما القلة التي كان عندها هاتف، فكانت تستعمله للمباركة.

كان هناك امساكية واحدة بسيطة توزعها الاوقاف، ومكتوب عليها اسم الشيخين الموقتين صالح ميقاتي وناصر ميقاتي، ولم يكن هناك امساكيات اخرى.

عندما يقترب المغرب، كانت الناس تقف على الشرفات تنتظر المدفع، اذ لم يكن هناك مكبرات صوت على المآذن. فاذا ضرب المدفع كنت تسمع وترى، كنت تسمع الدوي وترى القماش الاسود (حشوة المدفع المنصوب على القلعة والمشرف على المدينة) يتطاير في الهواء فنقوم الى الطعام بادئين باللبن والتمر!

وبعد المغرب، يذهب الناس الى الجامع المنصوري الكبير لصلاة العشاء والتراويح، ثم يبدأ السهر وكانت المقاهي: مقهى فهيم، مقهى النجمة، مقهى مريت باشا، تعج بالناس، ولكن الاهم كان مقهى التل العالي (قهوة التل العليا) ومقهى الروضة مقابل البلدية.

المقاهي في رمضان

كان جو من الفرح والانشراح يخيم على الناس، وكان بعض الناس عند الخروج المسائي من البيت يلبسون الثياب المريحة، خاصة القمباز (أهم أنواعه الكروزا) حتى لو لم يلبسوه الا في هذه الفترة.. فترة الفرفشة!

وكانت المقاهي تقدّم المشروبات، مثل الخرنوب والسوس والليموناضة والكازوزة، ومن طلب القهوة فتقدم له قطعة من راحة الحلقوم، وكان البعض من رواد المقهى الدائمين يأتيه عند الظهر ولا يستهلك بسبب الصيام ولكن يدفع ثمن استهلاك المساء عندما يأتي الى المقهى بعد الافطار مع الاصدقاء.

وكان المقهى مركزاً مهماً من نشاط البلد لفترة ما بعد الافطار وحتى السحور، وكان يدخله بائع البرازق وهو ينادي «الله رازق يا برازق». أما البرازق الطرابلسي الاصيل فكان كبير الحجم مثل الرغيف، وهو على نوعين: حلو بسكر ومالح. اما الحلو فكان سميكاً وعليه الكثير من السمسم، اما المالح فكان رقيقاً محمصاً يؤكل مع الجبن او السماق او الزعتر.. كله ذهب الى غير رجعة.

اذا كان الطقس بارداً كان الناس يجلسون في الداخل، لكن أجمل مكان للجلوس اذا برد الطقس او أمطر، كان «أوضة القزاز» في قهوة «التل العليا» من الناحية المشرفة على مقهى الروضة وعلى المدينة، اذ كانت هناك فسحة كبيرة مسقوفة ومقززة لأيام الطقس العسير.

أما في الصيف فكان في المقهى عينه سينما في الهواء الطلق، عبارة عن حائط مدهون ابيض وكراس من القش، تجلس حيث تشاء ويمكنك تدخين اركيلة وشرب مصقع مع مشاهدة الفيلم.

كان يُسمح للابناء السهر خارج البيت حتى ساعة متأخرة، ان لم يكن عندهم دروس في اليوم الثاني، فكانوا يجلسون في المقهى حلقات وينشدون غالباً موشحات مثل «لما بدا يتسنى» او «يا بنات اسكندرية» وربما تعدوا الى «يا قطيعة ويا قطيشة».

السحور

ونظراً لصغر المدينة كان الطبال يعرف تقريباً كل الناس فكان يُطبِّل عند كل عمارة ثم ينادي كلَّ فرد باسمه قائلاً: فلان افندي وحِّد الله وحِّد الله وذلك حتى للاولاد!

وكم كانت سعادة المراهق الذي بدأ يصوم ربما لأول مرة ان يسمع اسمه مقروناً بالافندية، فيقوم الى السحور وهو يوحِّد الله.. كان السحور في معظم الاحيان من نقيع القمر الدين والنقوع الذي زيد عليه بعض الجوز واللوز والزبيب.

كانت المساجد عامرة وكانت هناك دروس تُعطى في الجامع المنصوري الكبير بعد صلاة الظهر حتى صلاة العصر، وكان أهم الشيوخ والمدرسين المرحوم الشيخ عبدالكريم عويضة وكان يُلقَّب دائماً «بالحافظ لكتاب الله»، وكانت دروسه تعجّ بالناس، وكان يتربّع والناس حوله كانوا متربعين مثله، يستمعون ويطرحون الاسئلة..

وكان يُطرح كل يوم تقريباً نفس الموضوع، وهو موضوع من كان يجامع زوجته ليلاً.. ويضرب مدفع الامساك فماذا يفعل؟ وكان الشيخ حاضر الذهن سريع البديهة يفهم من السؤال لسان السائل متفلسف يريد احراجه، فيجيب ضاحكاً: ان الله غفور رحيم، قل لصاحبك الغليظ الاّ يجامع قبل الامساك بوقت قصير.. ولكن اذا حصل ذلك ولا يستطيع ان يتوقف، فان الله غفور رحيم.. وليغتسل جيداً، لا احراج في الدين، لا عيب في الدين، أسألوا ما تشاؤوا.

ما أحلاك تلك الايام البسيطة، ما كان أطيب ريحك وأصفى جوك يا أم الفقير يا فيحاء.

وما ان يقترب آخر الشهر، حتى يبدأ الوداع، فتمرّ فرق المودعين على التل، ومعهم الطبل والزمر، وراءهم الاولاد يصفقون ويهللون.

«أوضة مونة»

لم يكن في المدينة الاّ «سوبرماركت» واحد اسمه «أميوني وحديد» معظم بيعه للاجانب، لانه كان يبيع الاجبان الفرنسية والكاتو وما شابه، ولم يكن أحد يستهلك هذا في بيته.

لقد كان لانعدام السوبرماركت نتيجة هي التخزين.. كان في كل بيت «أوضة مونة» تُخزَّن فيها لوازم رمضان قبل بدايته، من أرز وقمح وغيره مع محسنات الطعام، من لوز وصنوبر وجوز وزبيب.

هذه الغرفة كانت «مغارة علي بابا» لربة البيت، التي أغلب الاحيان لم تكن تعمل الا لبيتها واولادها.

لم يكن يوجد مطاعم لأهل المدينة، بل فقط للوافدين، وكان نادراً جداً ان يأكل الناس خارج بيوتهم، الا المشاوي عند الجزّارين وفيما ندر.

لهذا كان الناس يدعون بعضهم الى المآدب في البيوت، عند بعضهم البعض، وكان عدم وجود التلفاز يسمح لهم ان يجسلوا معاً للمحادثة، مما يشدّ عُرى الالفة، وربما صلوا العشاء سوية مع التراويح، ثم عادوا الى البيت معاً بعد ساعة الفرفشة في المقهى حيث سهروا حتى السحور..

كانت بعض مآدب السحور البيتية تستمر حتى صلاة الفجر، مما يجعل الناس لا تستيقظ قبل العاشرة صباحاً، وبما ان المرأة لم تكن تعمل الا نادراً فكان للنساء متسع من الوقت لاعداد الاطايب وكانت الاسواق تعجّ بالناس الى ما قبل المدفع بساعتين لشراء ما لذّ وطاب من مأكل ومشرب.

فكان تحت «قبوة الجامع الكبير» باعة «الرز بحليب» و«المجمرة» و«حل الجنة» و«المهلبية» و«البالوظة» أكلات اشتهرت بها طرابلس ام الفقير.. أكلات رطبة طرية تريح الحلقوم.. أكلات ذهبت الى غير رجعة ليحلّ محلها «الكيك» والبسكويت المحشو الناشف!!

ما ان يقترب آخر رمضان، حتى يهتمّ الناس بحدثين الاحتفال باخراج الاثر الشريف من الخلوة الميقاتية في الجامع المنصوري واقبال آلاف الناس لتقبيل العبوة التي وُضع فيها، وكانت الناس تهلّل وتكبّر وتصلي على النبيّ وهي تمرّ أمام الاثر لتقبّله وقد حمله المفتي (الشيخ رشيد ميقاتي او الشيخ كاظم ميقاتي في تلك الايام) والدموع تنهمر من العيون.

ثم كان هناك الحدث العظيم الثاني، الا وهو ليلة القدر، وكانت الناس تُصلّي كل الليل، ومنهم من كان يصعد الى سطوح البنايات، متأملاً انفراج السماء أمامه! والناس يشكون حالهم الى المولى، فتسمع كلمات يا رب يا كريم من كل جهة!!

الاستعداد للعيد

وفي آخر الشهر يستعد الناس للعيد وتتزيّن محلات الالبسة ويبدأ «الاوكازيون» وأمام كل محل موظف يحمل بيده جرساً يطرقه ويصيح «اوكازيون هنا أحسن اوكازيون»!

وبالطبع، الاستعداد للعيد يعني صناعة المعمول والغريبة والاقراص بتمر، وكان معظمها يُصنع في البيت، خاصة المعمول فتفوح رائحة ماء الورد في سلالم البنايات.

لقد جمعت الحكمة الشعبية هذا الجو بجملة تدل على عفوية الناس وخلو ثقافتهم ونفسياتهم من العقد، فجاء القول: «بعد العشاء إفعل ما تشاء».

ما أحلاك يا إسلام، يا دين الفطرة التي سما بها الشرع فجعلها حضارة.